وبيّن في هذه الآية ان هذا المذهب ليس مذهبا للعرب من اول الامر كانوا على دين الاسلام وهو دين ابراهيم
عم وليس فيه عبادة الاصنام وانما حدث فيهم هذا المذهب بتسويل الشيطان واتباعهم الاوهام والغرض منه
ان العرب اذا علموا ان هذا المذهب ما كان اصلا فيهم وانه انما حدث بعد ان لم يكن لم يتعصبوا لنصرته
ولم يتاذوا من تزييف هذا المذهب وابطاله والقول الثاني انهم كانوا امة واحدة في الكفر وفائدة
ايراد هذا الكلام في هذا المقام هي انه تعالى بين للرسول عم انه لا تطمع في ان يصير كل من تدعوه الى الايمان
والتوحيد مجيبا لك قابلا لدينك فان الناس كلهم كانوا على الكفر وانما حدث الاسلام في بعضهم بعد ذلك
فكيف تطمع في اتفاق الكل على الايمان **قوله** فاختلفوا باتباع الهوى والاباطيل مبني على ان يكون المراد بكونهم
امة واحدة كونهم مخلوقين على فطرة الاسلام او متفقين على الحق من الاديان فان من اتبع هواه
فقد خالف من تبع سبيل الرشاد وكذا من اتبع الاباطيل من الاديان فقد خالف من اتبع الدين الحق
قوله او ببعثة الرسل مبني على ان يكون المراد به انهم كانوا على الضلال في فترة الرسل فلما وقع الاختلاف بين الناس
ناسب ان يجعل الحكم بينهم فيما اختلفوا فيه باهلاك المبطلين وتخليص المحقين او بعث الرسل على الضلال
وانما بعد المهتدين اجابة لهم فقال لولا كلمة سبقت من ربك بتاخير الحكم والجزاء الى يوم القيامة ليتميز دار التكليف
عن دار الجزاء لقضي بينهم عاجلا ويقولون لولا انزل عليه آية نوع رابع من مقالاتهم المتفرعة على انكار
النبوة كان اهل مكة يقترحون شيئا اخر سوى القران ليكون معجزة له عم مثل العصا واليد والعصى وقولهم لن نؤمن لك حتى تفجر لنا
من الارض ينبوعا الآيات بناء على زعم بعضهم من ان القران يمكن معارضته كما اخبر الله تعالى عنهم انهم قالوا
لو نشاء لقلنا مثل هذا **قوله** بجحودكم ما نزل عليكم من الآيات العظام التي اعظمها واجلها القران العظيم فانكم لا تعرفون
مثل هذا الكتاب من مثل هذا البشر الذي نشأ فيما بينكم ولبث فيهم اربعين سنة لم يطالع كتابا ولم يتلمذ
ولم يتعلم حرفا ولم يقل شعرا الا ان يكون ذلك بالوحي **قوله** تعالى واذا اذقنا الناس رحمة الآية جواب عن قولهم
لولا انزل عليه آية من ربه وتقريره ان مشركي مكة عادتهم المكر واللجاج والعناد وعدم الانصاف لانه تعالى سلط عليهم
القحط سبع سنين ثم رحمهم وانزل الامطار على اراضيهم ثم انهم اضافوا تلك المنافع الجليلة الى الانواء والكواكب والى الاصنام
واذا كان كذلك فبتقدير ان يعطوا ما سألوا من انزال المعجزات الاخر فانهم لا يؤمنون بل يبقون على كفرهم وجهلهم
وانما ينفع انزال الآيات عليهم ان لو كان غرضهم من اقتراحها تحصيل الحق وطلب اليقين وليس كذلك وليس غرضهم الا التعنت واللجاج
فلو ظهر لهم جميع ما طلبوه من المعجزات القاهرة فانهم لا يقبلونها واحيا المطر الخلق وكونه سبب الخصب والانواء جمع نوء
وهي ثمانية وعشرون منزلا ينزل القمر كل ليلة في منزل ويسقط في المغرب نجم وهو احد الكواكب الثمانية والعشرين كل ثلاث عشرة ليلة
مع طلوع الفجر ويطلع رقيبه في المشرق في ساعته مقابلة له ذلك الساقط وهذا في غير الجبهة فان لها اربعة عشر يوما فتنقضي جميع
مع انقضاء السنة اي مع انقضاء ثلاثمائة وخمسة وستين يوما كلما ناء ينوء نوءا اي نهض بجهد ومشقة وناء سقط
وهو من الاضداد ايضا ناء بالحمل اي نهض به متثاقلا وانما سمي النجم نوءا لانه اذا سقط الساقط منها بالمغرب فالطالع بالمشرق ينوء

ينوء اي ينهض والطلوع وقيل انما سمي نوءا لسقوطه وغروبه قال ابو عبيدة ولم تسمع في النوء انه السقوط الا في
هذا الموضع وكانت العرب تضيف الامطار والرياح والحر والبرد الى الساقط منها وقال الاصمعي الى الطالع منها في سلطانه
فيقولون مطرنا بنوء كذا فلما انجاهم الله تعالى من القحط ومطرهم نسبوا الامر على انواعهم واضافوا ذلك الى الانواء الى غير الله
لئلا يشكروا ولا يؤمنوا بآيات الله تعالى فقيل هنا هو المراد بمكرهم في آيات الله تعالى **قوله** تدبيرا عقابكم قبل ان تدبروا
كيدكم يعني ان ما يأتيكم من العقاب اسرع في الاهلاك مما اتوه من المكر في ابطال القران والنبوة روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ان الذين
قتلهم يوم بدر وجازى مكرهم في الآية بعقاب ذلك اليوم فكان اسرع في اهلاكهم من كيدهم في اهلاك عليه السلام
وابطال آياته **قوله** وانما دل على سرعتهم المفضل عليها جواب عما يقال كيف وصف الله تعالى نفسه بكونه اسرع مكرا
مع انه لم يصفهم بسرعة المكر ولا يعقل تفضيل احد ان المفضل عليه فمعنى اسرع مكرا انه تعالى اعجل عقوبة واشد اخذا
اي عذابا اسرع اليكم مما يأتي منكم في دفع الحق وتقرير الجواب ان كلمة المفاجأة دلت على سرعة مكرهم كانه قيل واذا رحمنا
هم من بعد ضراء فاجأوا وقوع المكر منهم وسارعوا اليه قبل ان يغسلوا رؤوسهم من مس الضر **قوله** وهو
انه انما الاستدراج او الجزاء على المكر فهو على الاول استعارة وعلى الثاني مشاكلة **قوله** وعن يعقوب يمكرون بالياء اي يكيد
العبيد والباقون بتاء الخطاب نظرا الى قوله قل الله اسرع مكرا قل لهم فناسب الخطاب لذكر لما او عدهم الله تعالى بقوله قل الله اسرع مكرا
او عدهم بعقاب الغيبة حيث قال ان رسلنا الآية **قوله** وقرأ ابن عامر ينشركم بفتح الياء وسكون النون من النشر وهو التفريق
والبسط كقوله فانتشروا في الارض والباقون يسيركم من التسيير والتضعيف فيه للتعدية لقوله سيروا في الارض واسرى بها فان قيل كيف
جعل قوله تعالى حتى اذا كنتم في الفلك غاية لقوله يسيركم في البر والبحر وغاية تسيركم في البر ليس بالوصول الى كذا فلم جعله حكم على الشيء
ويمكنكم منه واجاب عنه صاحب الكشاف بان الغاية ليس مجرد الكون في الفلك بل الغاية هي الكون في الفلك مع ما عطف عليه من قوله
وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها فان هذا المجموع بعضه في البر وجرين مع فرحهم بها يكون معطوفا على كنتم وان الكون مع مسعد قد
وضمير جرين للفلك لانه جمع مكسر وان يعتبر المذكر بناء على ان ضمته كضمة اسد وبكر وضمة مفرده كضمة قفل وقرئ الا للنبات
في بهم للمبالغة في التقبيح والانكار عليهم كانه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويحملهم على الانكار والتقبيح الجوهري عصفت الريح اي
اشتدت فهي ريح عاصف **قوله** يجيء الموج منه صفة عاصفة لقوله كل مكان **قوله** وهو من خرق الآن دعاء من الاخلاص
ظنهم الهلاك من الاحاطة الغرقى وهو لم يضف المصدر اليه لان المقصود وصل الاحاطة بالكلام واكثر الكلام مع افادة ما ينسب من
الاستئناف مع الاستغناء عن تقدير السؤال وبجاز يكون بدلا من ظنوا فان ما كان حالهم اذ ذاك يستلزم دعاؤهم الله لا هم
قوله لئن انجيتنا موطئة للقسم المحذوف ولنكونن جوابه والقسم وجوابه في محل النصب بقول مقدر وذلك القول المقدر في محل النصب
على الحال والتقدير دعوا قائلين لئن انجيتنا من هذه الريح العاصفة ومن الامواج الهائلة والشدائد لنكونن من الشاكرين لنعمتك المطيعين
باتباع اوامرك والاجتناب عما نهيت عنه لا نكفر نعمتك بعبادة غيرك فانك انت الاله المستحق للعبادة من تركه الشرك
وان لا نشرك معك شيئا من الهتهم قيل هذا الاخلاص ليس اخلاصا مبنيا على الايمان بل هو جهل بالعلم بانه لا ينجيهم من تلك الاهوال الا الله
فيكون ذلك جاريا مجرى الايمان الاضطراري فانهم يرجعون عما يدعون فاذا جاءهم الله بالنصر والنجاة لم يدعوا الا الله على سبيل الاضطرار

Copyright © King Saud University